الشعور الدينى عند المراهق*

بقلم
عبد المنعم عبد العزيز الملیجی
مدرس الفلسفة بحلوان الثانوية

« أليس الدين كل ما فى الحياة من الأعمال والتأملات ؟
« أليس الدين كل ما فى الحياة ماليس هو بالعمل ولا بالتأمل ، بل غرابة وعجب ينبعان من جداول النفس أبدا ، وإن عملت اليدان فى نحت الحجارة أو إدارة الأنوال ؟
من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله ، وعقيدته عن مهنته ؟
من يستطيع أن يبسط ساعات عمره أمام عينيه قائلا ، هذه لله ، وهذه لى ، هذه لنفسى وهذه لجسدي ؟
فإن جميع ساعات الحياة أجنحة ترفرف فى الفضاء متنقلة من ذات إلى ذات »
(جبران)

١ — التعقد والتناقض فى الشعور الدينى

عند ما تحدثت فى مقالى السابق عن الشعور الدينى عند الطفل تساءل البعض لم قلت « الشعور الدينى » ، ولم أقل « العاطفة الدينية » أو « الغريزة الدينية » كما يذكر جمهور الكتاب عادة بل والكثير من علماء النفس وفلاسفة الأديان . ويحسن بنا أن نجيب على هذا التساؤل قبل الخوض فى موضوع الشعور الدينى عند المراهق . ذلك أن الدين ليس غريزة أو ميلا فطرياً مثله مثل الميول الفطرية الواضحة المتميزة كالبحث عن الطعام أو الميل الجنسى أو الميل إلى الاجتماع أو الحاجة إلى العطف والأمن . إنما هو شعور مركب أو معقد يستحيل تحديده تحديداً مانعاً . هو نتاج هذه الميول جميعاً فى تفاعلها مع مختلف عوامل البيئة بوجه عام ، ولا ينشأ فى مستهل حياة الفرد إنما يظهر على نحو تدريجى ويمر بأطوار عدة ولم نجد بذوراً له فى حياة الفرد قبل سن الخامسة اللهم إلا من عدد محدود من الألفاظ ، يرددها الطفل دون إدراك لمعناها كالله والملائكة والموت وجهنم . وقد تبين من المقال السابق أنه حتى الطفل فى الثامنة من العمر وإن كان يدرك مفهومات هذه الألفاظ فادراكه لها يستقيه من

* تكملة المقال فى « الشعور الديني عند الطفل » الذى نشر في عدد يونيو ١٩٤٧ .

المجتمع الذى يكتسب منه معاييره الخلقية ، وسائر العادات والتقاليد

وليس الدين عاطفة خاصة قائمة بذاتها إلى جانب العواطف المتعددة كعاطفة الحب وعاطفة الكراهية إلخ . . . ونخطئ إن نحن اعتبرنا الشعور الدينى حقيقة نفسية ذات كيان مفرد مستقل إنما الدين فى الحقيقة يطلق على عديد من العواطف والانفعالات العادية التى تثيرها موضوعات الدين . وليس حقيقة نفسية ذا طبيعة خصوصية فهنالك الحب الدينى ، والخوف الدينى ، والرهبة الدينية ، والبهجة الدينية . وهكذا ، فجميع هذه عواطف وانفعالات عادية ، بيد أن ما يثيرها ليس موضوعات دينية . فالحب الدينى ليس إلا الحب العادى موجهاً إلى موضوع دينى ، هو الله ، أو كل ما يعتبره الشخص مقدساً ؛ وما الخوف الدينى سوى الخوف المعتاد ، بجميع مظاهره الخارجية ، وكل ما هنالك أن ما يثيره ليس موضوعاً طبيعياً كذلك الشخص المخيف أو الحيوان المفترس إلخ . . . إنما يثيره العقاب الإلهى ؛ والرهبة الدينية لا تختلف فى شىء عن الرجفة العادية التى تنتابنا إذ نضل الطريق فى غابة موحشة فى ظلام الليل ، بيد أنها رجفة ناتجة عن التفكير فى علاقتنا بما هو مقدس سماوى . وكذلك الحال فيما يختص بسائر العواطف الدينية التى تعرض للأشخاص المتدينين فى حياتهم . والخلاصة أنه لا وجود « لانفعال دينى » باعتباره حالة نفسية أولية متميزة ، ولكن انفعالا ما أو عدة انفعالات متفاعلة قد يصير دينياً إذا كان موضوعه دينياً ، وكما لا يوجد انفعال دينى أولى ، بل مستودع انفعالات عدة تثيرها الموضوعات الدينية ، كذلك لا يوجد موضوع دينى خاص أو محدد ولا فعل دينى خاص يختلف عن بقية الأفعال .

وهذا هو ما يدعونا إلى اعتبار الدين شعوراً عاماً معقداً هو نتيجة مجموعة من المشاعر والانفعالات والعواطف والأفعال العادية ما دام الفرد يعتبر نفسه فى علاقة مع ما هو إلهى مقدس أو ما يعتبره مقدساً . على شرط أن نفهم كلمة إلهى بمعناها العام بحيث تشمل علاوة على الذات الإلهية المحددة ما هو شبيه بالله (كالبوذية) .

وهنالك سمة أخرى تميز الشعور الدينى هى احتواؤه على عناصر قد تكون متعارضة . ومثله مثل كثير من الأحوال النفسية ينطوى على مركبات متناقضة حتى لتصدق عليه ظاهرة الـ ambivalence التى تعرف بتناقض العواطف . فالإيمان مثلا ليس انفعالا أولياً بسيطاً بل هو مزيج معقد من انفعالات متضاربة خاصة فى حالاته القصوى لدى المتصوفة والمتهوسين فيه حب جارف طالما أنطقهم

بأشعار الوجد والهيام التى لا تقل فى حرارتها وعنفها عن حرارة أشعار الحب التى نقرأها عن مجنون ليلى أو روميو فى مسرحية شيكسبير ، فيه استسلام وتضحية وهو مع ذلك يدفع إلى أعنف أفعال الإقدام والتهجم . ومن مظاهر هذا التناقض ما ينطوى عليه من نظرة حزينة إلى الكون مشوبة بإحساس بالسعادة والاستسلام المريح . والخلاصة أن الموقف الدينى لشخص ما يتضمن النوعين من الأمزجة ؛ أمزجة الانقباض وأمزجة الانبساط ، وهما يتناوبان على كيان الفرد فتارة يكون الغلبة الموقف الدينى للرضوخ والارتياع ، وتارة للسلام والحرية . هنالك موقفان من الدين : موقف معتم حزين مستسلم متشائم ، وموقف جاد لا استسلام فيه ولا ذلة ، ولكن بهجة وحرية وإقدام . وكل منهما يرجع إلى التركيب النفسى العام للشخص .

٢ — العنصر المنطقى فى الشعور الدينى

والدين فى حياة الفرد ليس وجداناً فحسب بل فيه قدر من العقل والمنطق وهذا سبب آخر من أجله أقول الشعور الدينى ولا أقول العاطفة حتى لا أستبعد العنصر العقلى رغم ضآلة الدور الذى يلعبه فى حياة الفرد الدينية . وهذا ما أود بيانه لأنه يساعدنا فى إلقاء ضوء على الدين لدى المراهق ، والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان هو : هل يقوم الدين عند الفرد على أسس عقلية ؟ أعنى ، هل العقيدة يصل إليها الفرد بالاستدلال المنطقى من مبادئ عقلية عامة ومن الوقائع التى ترد إلينا عن طريق الحواس ؟ وقد اتضح من المقال السابق بجلاء أن الدين عند الطفل لا يستند إلى أى أساس عقلى على الإطلاق . والأمر على خلاف ذلك فى حياة المراهق . ذلك أن العقيدة لديه يؤيدها أحياناً بالأدلة والبرهان العقلى ولكنه يؤمن بها قبل أى دليل أو برهان ، فالعنصر العقلى فى دين المراهق عنصر سطحى . هنالك وراء العقيدة الظاهرة التى قد تبدو منطقية حياة لاشعورية برمتها ؛ من دوافع وحاجات وعقائد سابقة ، وعقد نفسية ، كل هذه العناصر اللاشعورية هى التى تضافرت على إعداد العقيدة . لب العقيدة هو الناحية الغريزية أو الانفعالية وما العقيدة النظرية التى ينادى بها المراهق ويتحمس لها ويورد إليك الأدلة على حقها إلا ترجمة خلابة مقنعة فى صيغ لفظية لهذه الناحية الانفعالية ، التى تمتد جذورها فى حياة المراهق إلى نشأته الأولى أيام الطفولة وما اكتنفها من أحداث .

٣ ــ اليقظة الدينية فى المراهقة

« إن شئتم أن تعرفوا ربكم ، فلا تعنوا بحل الأحاجي والألغاز .
بل تأملوا فيما حولكم تجدوه لاعبا مع أولادكم . وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشى فى السحاب ، ويبسط ذراعيه في البرق ، وينزل إلى الأرض مع الأمطار .
تأملوا جيدا ، تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ، ثم ينهض ويحرك يديه بالأشجار . »

(جبران)

بين الطفولة والبلوغ مرحلة انتقال متوسطة هى مرحلة المراهقة التى تتميز بالاضطراب والقلق العام يصيب الجسم والنفس على السواء . فيها تتسع بيئة الفرد الاجتماعية فتشمل المنزل والمنتديات والأقران بعد أن كانت قاصرة على الأسرة ، ويتحرر الفرد بعض الشىء من سلطان الوالدين ، ويطمح إلى الاستقلال والاستغناء عن رعايتهما استغناء قد يبلغ به حد التمرد والعصيان إذا ما وجد أية مقاومة من جانب أحدهما . ولا تكاد تقبل هذه الفترة من حياته حتى تكون مقدراته العقلية قد تفتحت وكاد ذكاؤه يبلغ نهاية مستواه ، وتكون القدرة على التجريد والتصور العقلى قد بدأت تأخذ مكانها من حياته العقلية فتحرره بعض الشىء من قيود الحس وشطحات الخيال . وإلى جانب ذلك تزداد معارفه ومعلوماته عن العالم مما درس فى المدرسة من علوم وفنون ، وما قرأ من كتب ومجلات ، وما اكتسب من العالم الكبير الذى بدأ يندمج فيه . تستتبع هذه العوامل الاجتماعية والعقلية الجديدة نمو الثقة بالذات والتطلع إلى تقرير الذاتيه ، وتتضافر مع عامل خطير آخر هو النضج الجنسى على إحداث يقظة عامة فى الشخصية ، تفتح عام وازدهار شامل لجميع القوى النفسية من حب استطلاع يأخذ أشكالا عدة منها الفلسفة أو اللاهوت . ومن نشاط اجتماعى قد يكون خدمة اجتماعية ، أو كفاحاً وطنياً ، وقد يأخذ شكلا منحرفاً هو الانخراط فى سلك عصابات سرقة وإجرام بوجه عام . وقد يأخذ شكل يقظة دينية عامة تختلف عن الاهتمام الدينى لدى الطفل بما يصاحبها من انفعالات مضطرمة ، وبصيرة أكثر نفاذاً ، وموقف نقدى عميق ، فضلا عما تثيره من وجوه النشاط العملى (عبادة كان أو كفاحاً) الذى يتفق والطابع العام لشخصية المراهق .

٤ — الحماس الدينى .

أول مظهر من مظاهر اليقظة الدينية هو الحماس أو الإخلاص الدينى . ذلك أن النمو الجديد الذى أصاب مختلف النواحى الفسيولوجية والعقلية والاجتماعية والانفعالية من شخصية المراهق ، يدفعه إلى مراجعة موقفه من العالم بالإجمال ومن الدين بوجه خاص . يفحص الأفكار والمبادئ الدينية التى لقنها فى طفولته وسلم بصحتها دون اقتناع بها ، محاولا القضاء على الشك الكامن فى أعماق نفسه حيالها . لم تعد معتقدات الطفولة المبسطة الساذجة ، لترضى ذكاءه الناضج وعقليته الواقعية الجديدة المزودة بسلاح لم يكن بحوزتها من قبل ، أعنى سلاح المنطق . يتحرر من الفهم الخيالى الساذج للمفهومات الدينية ، ويدرك القيمة الاجتماعية للدين ، ويصحب ذلك إدراك لفكرة الثواب والعقاب التى تنطوى عليها فكرة الجنة والنار ، ويصبح إهتمامه بالأعياد وغيرها من المواسم الدينية قائماً على أساس معرفته لأصلها التاريخى ، لا على أساس ما يستفيده منها .

على أن هذه اليقظة الدينية ليست نتيجة النفاذ المنطقى إلى حقيقة الدين وموضوعاته المختلفة ، بقدر ما هى نتيجة انبعاث حاجات نفسية جديدة تبغى الإشباع والتحقق : قد يكون الحماس الدينى لدى المراهق نشاطاً يرضى الحاجة الملحة لتقرير ذاتيته ، أو يستجيب للنزعة الاجتماعية التى تدفعه إلى المساهمة فى حياة الجماعة ، مثلها وتقاليدها ، فيندفع فى مجال الخدمات الدينية كالتبشير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلوات والدعوات الدينية ، وإحياء المواسم الدينية ، وكل هذه أوجه نشاط يغلب عليها الروح الاجتماعية ، وهى لاتختلف عن أوجه النشاط الاجتماعية الأخرى ، كالرحلات ، والخدمة الاجتماعية ، والكفاح الوطنى ، والعصابات الإجرامية من حيث الدافع اللاشعورى الأصيل ، وإن اختلفت عنها فى مظهرها الخارجى . ولكن ينتاب المراهق حماس دينى من نوع آخر سلبى حيث لا يوجه المتدين نشاطه إلى خارج نفسه على شكل من الأشكال الاجتماعية المنبسطة سالفة الذكر ، إنما ينطوى على نفسه ، وتنتابه حالات لا تختلف عن حالات الملانخوليا ، فيها غيبوبة وإغراق فى أحلام اليقظة ، وكآبة متسلطة ، وصلوات مستمرة تنتزع المراهق من الانخراط فى سلك المجتمع والمساهمة مع أقرانه فى نشاطهم السوى . هذا النوع المنطوى على نفسه من المتدينين ، يكون

تدينه محاولة مخفقة للقضاء على القلق النفسى وحل الصراع الذى يسم مرحلة المراهقة . فالمراهق الشاذ هنا فى حرب دائمة مع طبيعته البشرية السيئة ، يحاول التغلب على الدوافع والرغبات الغريزية خاصة الجنسى منها ، تلك التى تلح عليه فى هذه المرحلة الجديدة من حياته ، وتغرس فى نفسه الشعور بالخطيئة ، ولا يجد مخرجاً من هذا الصراع إلا أن يهب نفسه للغايات الروحية السامية ، والزهد الذى هو فى الحقيقة محاولة لتغطية الدوافع اللاشعورية الآثمة . أو التى يعتبرها هو كذلك لأنها تتعارض مع المثل الأخلاقية التى امتصها فى طفولته من التربية المتزمتة .

وليست حالات الوجد التى تحدث عنها بعض المتصوفة إلا حالة قصوى من حالات التدين المرضى ، حالة هى أقرب إلى العرض العصابى منها إلى المظهر الخلقى أو الدينى . وهى حالة يحس فيها الصوفى امحاء العالم بأكمله . فلا يعود يرى غير الله ونفسه ، بل غير كائن واحد غير متميز ، لا هو بالله ولا هو بالمتصوف . ولكنه اتحاد أحدهما بالآخر اتحاداً عميقاً تنتفى فيه الثنائية . ويؤكد المتصوف الذى خبر هذه الحالات النادرة جداً أنه أحس بإحساس يختلف عن الإحساسات العادية ، ولكنه إحساس أكيد لا وهم فيه .

يبدو إذن أن الحماس الدينى سواء فى شكله الإيجابى أم فى شكله السلبى ، يحقق للمراهق خلاصاً من المشاكل الانفعالية الناجمة عن انقلاب المراهقة : تلك الحيرة ، والقلق ، والتخبط ، والخوف من الموت ، والتفكير فى المستقبل ، وثقل وطأة التجارب الغرامية — خاصة ما يبوء منها بالفشل — وازدياد التبعات التى يلقيها عليه وضعه الجديد كفرد تائه فى مجتمع كبير ؛ والمراهق إزاء هذه الحالة لا بد ملتمساً مخرجاً ، وهل أجدر من الدين ملاذاً يلوذ به . إنه يحقق له هرباً من الواقع المؤلم الذى لا يعبأ به بعد أن كان فى مرحلة الطفولة يستمتع بالأمن ، وبعد أن كان مركزاً لاهتمام جميع أفراد الأسرة . وهذا الهرب من الواقع قد يتخذ صورة ملانخوليا مرضية ، كما أسلفنا . فضلا عن أنه يزوده بالفرص لتقديم التضحيات ، التى يعتقد أنها كفيلة بالتكفير عن خطاياه (أو ما يظنه خطايا) ؛ وإتيان مختلف ضروب النشاط الاجتماعى ، والاستمتاع بالتفكير فيما وراء الطبيعة من موضوعات الدين . ليس عجيباً إذن أن يكون للدين هذه الجاذبية بالنسبة للمراهق ، طالما هو يرضى العديد من ميوله وحاجاته الجديدة .

هذا يفسر لنا تكالب بعض الصبيان والفتيات المنحرفين على الالتحاق

بالأديرة هرباً من شرور الواقع فى ظاهر الأمر وما هو فى الحقيقة إلا هرباً من أنفسهم وما يصطرع فيها من ميول . ويفسر لنا تفرغهم للتبشير خارج أوطانهم ، ولعلم رجال الدين المسئولين عن الأديرة أن الرغبة فى الرهبنه إن هى إلا مظهر من مظاهر ثورة نفسية عابرة قد تخبو جذوتها بزوال متاعب فترة الانتقال . فانهم يرفضون قبول إلحاق الفتيان والفتيات بهذه الأديرة إلا بعد أن يعملوا فكرهم . ويفسر لنا كيف أن أول حملة صليبية وجهت إلى العالم الإسلامى كان قوامها صبية وفتيات لم يتعدوا مرحلة المراهقة بكثير . ويفسر لنا مظهراً آخر وهو أن أغلب أعضاء الجمعيات الدينية هم من هؤلاء المراهقين المتحمسين ، الذين يغلب أن تفتر حميتهم بعد تعديهم مرحلة البلوغ وبلوغهم مرحلة استقرار الرجولة الناضجة فيتحللون من نشاطهم الدينى ، لأنه لم يعد يرضى ميولهم المتطورة النامية .

٥ — الشك والإلحاد

المظهر الثانى من مظاهر اليقظة الدينية التى تطرأ على المراهق ، حالات الشك وانعدام اليقين الذى يأخذ أحياناً شكل المجاهرة بالإلحاد . ويأتى هذا المظهر فى أعقاب النضج العقلى وتفتح ملكة النقد ولهذا كنا نرى العنصر العقلى يسيطر على الخبرات الدينية فى أواخر المراهقة كما يسيطر العنصر الانفعالى فى بدئها . ويكون المراهق أكثر قابلية للشك إذا كانت تربيته الدينية المبكرة تربية فرضية . ويختلف الشك باختلاف مزاج الفرد وذكائه ومعارفه وظروفه الخاصة فيتراوح بين الاهتمام النقدى العابر وبين الارتياب الحاد فى كل عقيدة من العقائد .

وليس معنى هذا أن الشك ينتج عن تطور المراهقة بل لا بد أن تكون بذوره كامنة فى النفس منذ الطفولة المتأخرة ويساعد على ظهوره فى هذه السن نمو ذاتيته بسبب اكتسابه نضجاً عقلياً ، وقدرة على النقد ، وفهماً جديداً لمشاكل الحياة ، وبفضل تأثير الدراسة العلمية . أو قد تبعثه كوارث راهنة تفقد الإنسان ثقته فى نفسه وفى كل نواحى الحياة . والمطلع على مذكرات الشباب يتبين بوضوح منبت هذه الحالة والانفعالات المصاحبة لها من قلق نفسى ، وحيرة ، وتردد ، وكآبة قد تؤثر فى قدره الفرد الإنتاجية مرحلة من الزمن قد تطول أو تقصر أو تستمر .

وليس من الضرورى أن يكون مبعث الشك هو نمو العقل وظهور القدرة على النقد ، فهو فى الغالب نتيجة ظروف شخصية تفعل فعلها دون أن يعيها الفرد . وليست

فى كل الأحيان نتاج التأمل الفلسفى أو التفكير المنطقى . وفيما يلى أقوال شاب مصرى فى الحادية والعشرين من عمره يصور فيها كيف وقع فى الشك : «كتب إلى عند ما سألته هل لديه تأملات دينية فأجاب : إنى لا أفرق بين الفلسفة والدين ، فاذا كانت لى تأملات دينية ، فربما تتخللها تأملات فلسفية . أما نشأة هذه الإفكار فمنذ تسعه سنين تقريباً (أى وهو فى الثانية عشرة من عمره) اعترانى تفكير غريب من الوجهة الدينية ، وكنت لا أعتقد بوجود إله عادل يحكم بين الناس ، وانما وجدت هذه القوة لكى تصيب الناس فى معاشهم وتفسد عليهم سعادتهم فأحضرت والدتى أستاذاً لكى يرشدنى إلى الطريق القويم فى الدين . ولكنى كنت أضيع هذه الدروس فى مناقشات حادة . سألت الأستاذ يوماً « إنك تقول إن الله يعلم كل شىء سيحدث قبل حدوثه فلم يدخلنا النار إذن وهو عالم بما سنرتكبه من شر وكان فى إمكانه أن يبعدنا عن الشر ثم يعاقبنا بعد ذلك .!؟ ألم أقل لك إنه ظالم : سلبنى والدى وسيسلب سعادتى وسيسلبك حياتك . »

ثم يستطرد بعد ذلك قائلا :

« إننى ترصلت إلى وجود الله بمناقشات هادئة بينى وبين والدتى حتى اقتنعت بعد أن عجزت عن الرد على بعض أسئلتها وأقلعت عن تلك الأفكار إشفاقاً على والدتى وحباً لها لأنى كنت أشعر أن إيمانها قوى لا تشوبه شائبة وكانت آرائى تؤلمها ألما لا حد له . . .

وليس شكى يتناول الإسلام فحسب ، بل جميع الأديان . ومنذ أكثر من عام وأنا أحاول تجنب التفكير فى المسائل الدينية وأحاول أن أبعد نفسى عن الحكم على أية مسألة تتناول الدين والله ، فتشعرنى بضعف غريب ، وتغمر نفسى موجة من الإيمان والخشوع لذلك الجلال الذى خلقه الله ، فأشعر بسرور وربما بسعادة جارفة لتوصلى إلى وجود الله . ولكن لا أدرى كيف تنتهى هذه الحالات ، أو إن شئت فلتسمها نوبات من الإيمان — على أن شكى الدائم فى الله والدين لم يكن يدفعنى إلى عدم التمسك بالأخلاق ، بل كنت عدواً للعادات السيئة محباً للفضيلة ، ولا أنظر للخطايا بعين الارتياح ، وإن كنت ارتكبت بعض المحرمات فلقد قاسيت كثيراً من عذاب الضمير . »

تكشف مذكرات هذا الشاب بوضوح عن العنصر الانفعالى المصاحب للشك

فى مرحلة المراهقة وحالة الاضطراب والصراع بين الشعور الدينى وبين التفكير المنطقى . ونستطيع أن نتبين فيها أموراً ثلاثة :

أولا : أن الشك قد ينبعث عن كارثة كتلك التى حلت بالحالة السابقة ، إذ لم يكن شكه إلحاداً ، أو إنكاراً لوجود الله ، بل نوعاً من العتب على الله الذى أمات والده مخلفاً أمه بآلامها . هو شك شخصى صرف ليس نتيجة تأمل منطقى كما هو الحال لدى بعض المتأملين فى أخريات سنى المراهقة .

ثانياً : ساعد على الشك ارتفاع مستوى ذكائه مما جعله يتنبه إلى بعض التناقض البين فى بعض الأفكار الدينية . مثل العقاب وعلم الله .

ثالثاً : إقلاعه عن الشك فى فترات كان إرضاء لوالدته لا اقتناعاً عقلياً . إن مشكلة هذا الشاب هى شدة ارتباطه بأمه ، وشقاؤه من أجلها ، وتعذبه عذاباً شديداً أن فعل ما يعتقد أنه يخالف رغبتها . وهذا يدلنا على أن علاقة شخصية ما قد تؤثر فى تشكيل فكره الشخصى عن الدين ، وليس الدفاع المنطقى بعد ذلك عن الرأى إلا تبريراً لما اكتسبه من عقائد ومواقف على نحو لاشعورى . ومن ذلك أن كثيراً من الناس دخلوا الدين الإسلامى والمسيحى إعجاباً بمحمد عليه السلام واستجابة لشخصية عيسى عليه السلام .

ثالثاً : أن عدم الاهتداء إلى رأى حاسم فى الدين يسبب حالة من الإجهاد النفسى ، قد يكون لها أسوأ الأثر على حياة المراهق . وكلما كان ضمير الفرد قوياً مسيطراً على أهوائه ونزعاته الغريزية كان الصراع فى شكه أكثر عنفاً وحدة ، إذ ينظر إلى الشك فى هذه الحالة نظره إلى الخطيئة ولكنه مع ذلك قد يظل خلقياً متحفظاً .

هذه حالة شك نتيجة ظروف شخصية لها مثيل فى حياة كثير من رجال الفكر فى تاريخ العالم ، أمثال شوبنهور الذى كان شكه وتشاؤمه نتيجة ما ألم به من كوارث وانعكاساً لأرض أوربا المخضبة بالدماء عقب حروب نابليون . والشك ليس انعكاساً لحالة الفرد النفسية فحسب ، بل لحالة المجتمع السائدة من حيث الكوارث الاجتماعية أو الاستبداد أو الحروب أو التقلقل إلخ . . .

على أن كثيراً من المراهقين يشكون نتيجة تأمل منطقى وهذا يحدث غالباً فى نهاية مرحلة المراهقة حيث يغلب العنصر العقلى على العنصر الانفعالى ، وهذا حدث لكثير من الفلاسفة فى تاريخ الفكر أمثال القديس أوغسطين والإمام الغزالى ودافيد هيوم. هذا هيوم يعبر عن قلقه النفسى إزاء شكه فى كل شىء حتى الدين فى تلك

العبارة : « أين أنا ؟ من أى العلل أستمد وجودى ؟ وإلى أى مصير أنتهى ؟ كرامة من أتملقها ؟ وغضب من أخشاه ؟ على من أؤثر ومن يؤثر فى ؟ إننى مرتبك من هذه الأسئلة جميعاً ، وأكاد أغمى نفسى فى أقصى حالة من الحزن يمكن تصورها ، محوطاً بأعمق الظلمات . . . » .

٦ — الدين والحب

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى
وقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبان طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيمانى
(ابن عربى)

حاول بعض الكتاب ، متأثرين بالتحليل النفسى ، إرجاع اليقظة الدينية التى تصيب المراهق إلى أصل جنسى ، واعتبار الانقلاب الدينى الذى يحدث فجأة نتيجة التحول الجنسى الذى يسم مرحلة المراهقة . ويلاحظون التساوق فى الوجود بين النمو الدينى والنمو الجنسى . الدين فى نظر هؤلاء إعلاء للغريزة الجنسية ، وتقشف القديسين وإخلاص المبشرين كلاهما تعبير شاذ عن الغريزة الوالدية ، والفتاة التى ترهب وتقضى العمر فى التعبد ، ليس المسيح بالنسبة إليها إلا بديلا سماوياً عن موضوع دنيوى لعاطفة حب جارف . ويذهب بعض الكاثوليك فى تفسيرهم الجنسى للدين إلى حد اعتبار حركة الإحياء الدينى التى بعثها « مارتن لوثر » منشئوها رغبة هذا الأخير فى الزواج من إحدى الراهبات ومحاولته التحلل من قيود الرهبنة والتقاليد الكاثوليكية .

ونحن من جانبنا لا نستطيع إرجاع التطور الدينى إلى عامل واحد كالعامل الجنسى ، فضلا عن أن المراهقة يصحبها اهتمام الفرد لا بالدين فحسب ، بل ، بالطبيعة ، والكيمياء ، والفلسفة ، والمجتمع . فهل نرجع سائر هذه الظواهر العقلية العليا إلى الاضطراب الذى يصيب الغريزة الجنسية فحسب . ومع ذلك فاننا لاحظنا من الحالات التى درسناها ارتباطاً بين الدين وبين الغريزة الجنسية فى صورتها الراقية ، أعنى عاطفة الحب . ويزداد هذا الارتباط فى الحالات الشاذة حيث يتضح أثر العامل الجنسى واضحاً جلياً كما سنبين ذلك بعد قليل .

والمطلع على أقوال المتصوفة ، والمراهقين المتزهدين وعلى تاريخ حياتهم ليلمس هذه الصلة بوضوح . محيي الدين بن عربي يفيض بقصائده التي يتغزل فيها بالذات الإلهية غزلا لا يقل حرارة عن الغزل في فتاة معشوقة ، ويورد من الصور الحسية ما تزخر به قصائد الحب العادي . كل ذلك في نفس الوقت الذي يقع فيه في حب إبنة أستاذه . وإن حالة الاتحاد أو فناء الذات في الذات الإلهية كما يصفها الصوفية لا تختلف كثيراً عما يحدث في أوقات الغرام العميق ، في أعنف لحظات الحب ، حين تختفي الثنائية البشرية بين المحب والمحبوب ، وهذا الاتحاد يطلق عليه حالة « الوجد » . وكل ألفاظ الصوفية مستقاة من قاموس الحب البشري العادي .

هذا الارتباط بين الحب والإيمان كان مادة خصبة تناولها كتاب القصص المتعمقون في قصصهم ، وقد أبدع تصويرها الكاتب الفرنسي (أندريه جيد) في « الباب الضيق » وهو قصة غرامه العذري مع (أليسا) ذلك الغرام الذي يبدو من القصة أن الدافع إليه شعور ديني قوي متزمت استحوذ على نفس أليسا ، ومن اليسير ملاحظة عنصر الإحساس بالخطيئة في ذلك الحب رغم طهارته من ذلك الحديث الذي دار بين حبيبها وبينها إذ يقول لها :

— « كل ما سأكونه في مستقبلي من أجلك أنت أريده » . فتجيب عليه :

— « ولكن أنا أيضاً ، يا جيروم ، يمكن أن أتركك » . فيقول لها :

أما أنا فلن أتركك إلى الأبد .

فهزت كتفها قليلا تقول :

— ألا تملك من القوة ما تمشي به وحدك ؟ كل منا يجب أن يصل وحده إلى الله .

— ولكنك أنت تدلينني على الطريق .

إليسا — لم تبغي أن تجد هادياً في غير يسوع ؟

جيروم — في الابتهال إليه أن يجمع بيننا . هوذا ما أطلبه إليه كل صباح وكل مساء .

إليسا — أقاصر أنت عن أن تفهم ما يمكن أن يكون الاتحاد في الله ؟

جيروم — إني لأفهم من كل قلبي : هو التلاقي الواجد في شيء واحد معبود . ويخيل إلى أني من أجل لقائك وحده أعبد ما أراك تعبدين .

إليسا — عبادتك هذه غير طاهرة .

جيروم – لا تطلبى منى أكثر مما أفعل . إنى لأهزأ بالسماء لوكنت لن ألقاك فيهـــا .

فوضعت إليسا إصبعاً على شفتيها وقرأت الآية :

ليكن هدفكم الأول ملكوت الله وعدالته(١) .

ثم هذه سطور من مذكرات إليسا التى ضحت بحبها وغرامها فى سبيل الاتحاد بالله ، تعبر عن الارتباط بين حبها لجيروم وإيمانها بالله إذ تتوسل إليه ضارعة بعد أن صدت جيروم عنها بحجة أن الاتحاد بالله يتطلب التضحية بحبهما :

« يا إلهى . هبنى إياه أهبك قلبى

يا إلهى ، دعنى أره فقط .

يا إلهى . أعاهدك أن أعطيك قلبى ، فأجب هواى إلى طلبته ، ولن أهب إلا لك ما يتبقى من حياتى . . .

يا إلهى ، غفرانك لهذه الصلاة الذليلة ، فما أملك أن أجنب اسمه شفتى ولا أن أسلو آلام قلبى . »

٧ – الارتداد الدينى

وقد يحدث أن ينقلب مؤمن من قديس إلى فاسق مجدف ، فينهار البناء الشامخ ، لأنه كان يقوم على أساس كاذب . أو ينقلب من فاسق ملحد إلى مؤمن متبتل . والتحليل النفسى ييسر لنا فهم هاتين الحالتين مستعيناً بالتفسير الجنسى . أما الانقلاب إلى الزهد والتبتل فواضح أنه للتكفير عن الخطيئة وقهر النزعات الغريزية وإرضاء مطالب الضمير اللاشعورى . أما عن الانقلاب من الإيمان إلى الفسق ، فكما أن الميول الجنسية التى تنبثق فجأة لدى البلوغ لم تكن معدومة من قبل ، بل كامنة فى أعماق اللاشعور ، كذلك قد تكون النزعة اللادينية لاشعورية كامنة فى خبيئة النفس . فليس التحول الدينى إذن فجائياً كما يبدو ، ولكنه مسبوق بمرحلة من التكوين الصامت يتضافر على إحداثه عوامل عدة منها الكوارث والنكبات التى تزعزع ثقة المراهق فى السماوات ، وتحل النقمة عليها محل الاطمئنان إليها ، ومنها عيوب التربية فى الطفولة من حيث الضغط وإجباره على تلقى تعاليم الدين ولما يدرك بعد كنهها ، وما يستتبع ذلك من ارتباط بين الدين وذكريات نفسية مؤلمة ، ومنها تفتح ذهنه

(١) الترجمة العربية ، تعريب الأستاذ نزيه الحكيم .

وقراءة بعض كتب تقلب أفكاره رأساً على عقب ؛ وأخيراً — وهذا ما يهمنا الآن — عنف الكبت الجنسى الذى لا بد له من حد ينفجر عنده الفرد فيحس بمأساة الحرمان الطويل ، فيصب لعنته على الدين الذى كان سبباً فى هذه المأساة .

وقد أبدع « أناتول فرانس » فى قصته « تايس » تصوير حالة الارتداد هذه التى تتمثل فى القديس بافنوس[1] ، ذلك الراهب الذى بلغ من تفانيه فى الله أن قضى العمر فى الصحراء ، وبالغ فى إذلال جسده إلى حد أنه عمد إلى الإقامة فوق قمة أحد عمدان المعابد المهجورة سنوات عدة لم يذق فيها طعم الراحة ، فضرب الرقم القياسى والمثل الأعلى لجميع الرهبان . وبعد كفاح مرير يكلل بالنجاح فى سبيل هداية « تايس » العاهرة الجميلة ، تدخل تايس الدير مخلفة وراءها مجداً عريضا ، وثروة توزعها على الناس ، وجاهاً تدوسه بالأقدام ، استجابة لدعوة الأب بافنوس ثم يحضر « تايس » الوفاة ويصل الخبر إلى بافنوس فيسرع إليها وهى على فراش الموت وما أن ينظر إليها حتى تسلم الروح . هنا تثور ثائرته ، وفى لحظة واحدة يضيع كفاح العمر ، وينفجر ضارعاً أن تقبله ، ويضمها إليه لأول مرة فى حياتها ويقبل جسدها قبلات تتضوع بالشهوة وتفوح منها رائحة الرذيلة . ثم يلطم وجهه بضربات جنونية ملقياً اللوم على نفسه ، ويصيح متحدياً ربه ! « أيها الإله تعال أبصق فى وجهك » .

لقد تكشف الدافع الحقيقى الذى كان يختفى وراء ما بذل من جهود فى سبيل هداية تايس إلى طريق الله . وإن إنساناً هذا شأنه لا بد أن انفعالات النقمة على الدين كانت تفتعل فى خبيئة نفسه منذ أمد ليس بالبعيد ، وأن نزعة جنسية كانت تستتر خلف مظاهر الإيمان الزائف ثم انبثقت فجأة وتبدت للشعور عند ما أيقن أن تايس قد هلكت وأصبحت لله فلم يقو على إعلان النقمة على نفسه وعلى الله .

نستطيع أن نقرر أخيراً أن التحول الدينى ليس اهتداء عقلياً مفاجئاً إلى مذهب مغاير لما اعتنقه الشخص ، بقدر ما هو انكشاف مفاجئ لعقدة انفعالية ، ظلت أمداً تنمو وتتحفز فى خبيئة النفس .

عبد المنعم الملجى

(١) تايس : عاهرة الاسكندرية التى ذاع صيتها فى عصر الرومان وقد جثا عند قدميها وعبد جمالها الألوف . وقد حاول الراهب بافنوس هدايتها حتى أفلح وأدخلها الدير .

Résumé

LE SENTIMENT RELIGIEUX CHEZ L'ADOLESCENT

A. A. El-Meleegy

L'auteur souligne tout d'abord qu'il s'agit du *feeling* religieux et non d'un sentiment spécifique, ni à plus forte raison d'instinct religieux, mais d'un complexe de sentiments qui se forme et évolue sous l'influence de nombreux facteurs individuels et sociaux.

Discussion est faite des points suivants : complexité et éléments contradictoires et ambivalents de l'état d'âme religieux; le rôle du raisonnement logique; l'éveil religieux au cours de l'adolescence; l'enthousiasme religieux et ses effets cathartiques; le doute et l'athéisme et le rôle prédominant qui y revient aux sentiments; la religion et l'amour et enfin le reniement et la conversion et le rôle qu'y joue la répression.

L'auteur illustre son point de vue par des extraits tirés du journal d'un adolescent et par des références faites à "La Porte Etroite" de Gide et à "Thais" d'Anatole France.